٣٣ أبو جعفر الطحاوى ومواجهة حادة لحاكم ظالم

يخطئ من يظن أن الإسلام ـ وهو دين العقل ـ معاد للعلم، فمنذ جاء هذا الدين وهو يحث على العلم ويجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، وليس هناك أى دين آخر ـ سماوى أو غير سماوى ـ عرف قدر العلم والعلماء مثلما عرف الإسلام قال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ولم يتخذ موقفاً من أى نوع من العلوم إذا كانت فى الأصل موجهة لخيرى الدنيا والآخرة.

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام واجبة على كل مسلم ومسلمة، بالقول أو العمل فإن الدعوة إلى العلم والتفقه فى الإسلام واجبة أيضاً على المسلمين، وفى هذا يقول عز وجل: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[2] ولذلك يشترط الإسلام فيمن يتولى تفقيه المسلمين الأمانة والإخلاص القدوة الصالحة والثقافة الواسعة، والرواية المستنيرة، والاستعداد للفداء والجهاد، ومن هؤلاء المؤمنين الذين برزوا فى الفقه الإمام العالم أحمد بن محمد بن سلامةالمعروف بأبى جعفر الطحاوى.

والإمام العالم، والفقيه الحنفى أبو جعفر الطحاوى الذى انتهت إليه إمامة المذهب الحنفى بمصر وُلد عام ٢٣٨ للهجرة بقرية «طحا» فى ولاية ابن إسحاق

---

(١) سورة الزمر ـ من الآية التاسعة.

(٢) سورة التوبة ـ من الآية ١٢٢.

عَلَى مصر، فكان من أنصار آراء أبى حنيفة النعمان ومتأثراً بها، ومتشيعاً لها، خاصة فى عهد هذا الوالى العادل.

فقد كان عهد ابن إسحاق يتسم بالعدل والإنصاف، وقد أظهر فيهما ما لم يُسمع بمثله فى زمانه، وفى ذلك يقول الذهبى فى تاريخه كان ابنُ إسحاق يتوجه ماشياً إلى المسجد العتيق من مسكنه وكان ينادى الناس فى شهر رمضان: «السحور. السحور» وهو أمر لم يكن معتاداً من الولاة والأمراء والملوك، خاصة بعد الأمويين».

ومن هنا تفتحت عينا الإمام الفقيه أبى جعفر الطحاوى على عهد اتصف بالعدل والإنصاف والورع الذى عم البلاد، فشمل المدن والقرى، ومنها «طحا» التى ينتسب إليها هذا الإمام الفقيه الذى برز فى الكثير من الموضوعات الفقهية التى يفرضها عصره.

لقد كانت البدايات الفقهية للإمام العالم أبى جعفر الطحاوى شافعية إلا أنه تَحولَ عنها وإلى المذهب الحنفى.. وحين سُئِلَ فى ذلك قال: «كنت أرى خالاً لن يديم النظر فى كتب أبى حنيفة، فلذلك انتقلت إليه..» ولعل هذا التحول كان خيراً وبركة بالنسبة لزمانه الذى كان يتطلب توضيح الكثير من المسائل الخاصة بالفقه.

ولقد أقبل هذا الإمام الطحاوى على كتب الفقه قديمها وحديثها حتى تكونت لديه وجهة نظر فى العقيدة والدين تبدو فيما ترك من الكتب الفقهية المفيدة، ومنها «أحكام القرآن».. و«اختلاف العلماء» و«معانى الآثار والشروط»، وكانت له دعوة مجابة ـ وكان يقول: «مَنْ طَهَّرَ قلبه من الحرام فُتحت لدعواته أبواب السماء».

ولم يقتصر دور هذا الفقيه الإمام على تأليف الكتب فحسب، بل كان يقوم بالوعظ والإرشاد حيناً والتدريس فى المسجد العتيق حيناً آخر. بل شمل دوره تبصير المسلمين بتحوّل الولاة إلى التعسف والظلم فى أخريات حياته، خاصة والى الخليفة العباس المقتدر أبو منصور «تكين» الذى أقره الخليفة المقتدر على مصر وسوريا.. وكان «تكين» هذا يتصف بالجبروت والمهابة، وهو أمر يختلف عن مسلك ابن اسحاق كما رأينا ويتفق مع سلوك العباسيين عامة.

وقصة الطحاوى مع الوالى أبى منصور تكين يحدثنا بها السخاوى فى كتابه «تحفة الأحباب» فيقول: «إن أمير مصر أبا منصور تكين الشهير بالجَّبار المهاب، سمع بعلم وفضل الإمام الطحاوى وإقبال الناس عليه، حتى أصبح له مريدون وأتباع، فطلبه وعندما تحدث معه أدرك سبب الإقبال عليه.. وهنا بادره الأمير قائلا: «أريد أن أزوجك ابنتى» فقال الفقيه الإمام: «لا أفعل ذلك». قال الأمير: «ألك حاجة إلى مال؟». قال الفقيه الإمام: لا. قال الأمير: هل أقطعك أرضاً؟ قال الإمام: لا. قال الأمير وقد أصر على استمالة هذا الإمام الذى يتبعه أبناء مصر: إذن فاسألنى ما شئت؟ «فرد عليه الطحاوى قائلا: «وتسمع؟!» قال الأمير: نعم. وهنا رد عليه الإمام الطحاوى قائلا: «احفظ دينك لئلا ينقلب، واعمل فى فكاك نفسك قبل الموت، وإياك ومظالم العباد». ونزلت هذه الكلمات غير المتوقعة على الوالى نزول الصاعقة.

وقبل أن يرد عليه هذا الأمير الجبار والمهاب بالنفى أو الإيجاب تركه الإمام الطحاوى ومضى.. فقد قال له ما يريد على اعتبار أن دور رجل الدين فى رأيه هو تبصير العباد ـ حتى ولو كانوا ملوكاً وولاة ـ بأخطائهم.. مهما تكن نتائج هذا التبصير.

ومن عجيب الأمور أن هذا الوالى المهاب قد سمع جيداً نصح هذا الفقيه الإمام، فرجع عن ظلمه وعسفه لأهل مصر، بل وتحوّل إلى منصف وعادل، والسبب هو إدراك صدق هذا الإمام فيما نصح، وتغليبه الصالح العام على المنفعة الشخصية، والأهم أنه وجد من يستطيع أن يقول له «لا» وهو ما لم يتعوده من قبل.

وهكذا استمر الإمام الطحاوى يبصر المسلمين فى أمر دينهم طوال حياته.. منفقاً كل وقته إمَّا فى الفتوى الوعظ والإرشاد أو فى التفكير والتأمل والتأليف، أو فى التدريس والمناقشة والمساجلة.

وقد نلمح فى كتابات هذا الإمام العالم الفقيه الكثير مما يدل على سعة عقله وتطوره بالنسبة إلى عصره، فهو يرى أنه لا يمكن المساواة بين العالم والجاهل فى

المنزلة والمكانة فى الدين، يقول الله فى كتابه الكريم: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] أو حين يقول الله سبحانه لنبيه الكريم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[2].

ولذلك فشيخنا الصالح أبو جعفر الطحاوى يرى أن مسئولية العالم فى الدين الإسلامى كبيرة، وخَطَؤُه ليس خطأً عادياً، وقد صور النبى ﷺ موقف العالم الذى يأمر الناس بالخير، ولا يقوم بأدائه تصويراً معبراً حينما قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقطاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟ فيقول: بلى: كنتُ أُمُر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

ومن هنا كان السلف الصالح ـ ومنهم الشيخ أبو جعفر الطحاوى الحنفى ـ يرون فى القرآن مرآة لأحوالهم، وميزاناً لتصرفاتهم، وكانوا يَسَحُونَ أن يخرج الواحد منهم من حدود هذا الدين ولو بزلة لسان.

واستمر هذا الشيخ الصالح أبو جعفر الطحاوى يقوم بواجبه على النحو الذى رسمه الإسلام ونبيه الكريم، حتى كانت وفاته فى سنة ٣٢١ هـ. فى نفس المكان الذى يتعبد فيه ويعلم ويفقه فى أمور الدين. هذا المكان أقيم عليه مسجدا ضم رفاته الطاهرة.

* * *

(١) سورة الزمر ـ من الآية التاسعة.
(٢) سورة طه ـ من الآية ١١٤.